

## خواطر حول مظاهر التخلف الفكري في المجتمع العربي

ثامنا - دور العقل هو في ان يهدي الى صدق النبي والى فهم سنته . وفيما عدا ذلك يجب اطراحه ، ولزوم الاتباع . فالمعرفة او الثقافة الحقيقية ، حتى حين تكون عقلية ، هي الثقافة الدينية وما يعرف في ضوءها وعلى هديها . العقل ، بتعبير اخر ، يكون شرعيا ، او لا يكون . وهكذا يكون مجال الفكر الظاهر لا الباطن ، والمعلوم لا المجهول ، والمخلوق لا الخالق . (١) .

- ٤ -

هذا الفكر ، بقواعده وغاياته ، هو الذي يسود المجتمع العربي ، اليوم . ولذلك فان الايديولوجية السائدة ، سواء في المدرسة والجامعة والبرامج التربوية ، والصحافة والاذاعة والكتاب ، انما هي قوة ارتداد نحو الماضي ، وقوة محافظة على الراهن الموروث . ومع ان حركات التغيير التي حدثت في العقود الاخيرة ، قامت باسم الجماهير فانها لم تبس اية سلطة للجماهير ، عمالا او فلاحين ، ومع انها قامت باسم القضاء على علاقات الانتاج المورثة ، فان هذه العلاقات ما تزال هي السائدة ، ومع انها قامت باسم تجاوز البنية الايديولوجية التقليدية ، فان هذه البنية ما تزال كذلك ، هي السائدة . لقد عجزت هذه الحركات عن توليد نمط جديد من الحياة ومن التفكير . لذلك تلعب هي نفسها دورا اساسيا فسي عرقلة انضاج الشروط الموضوعية للتغيير الثوري ، خصوصا ان الجماهير التي تسيطر عليها وتوجهها ما تزال تتشرب الايديولوجية المورثة بحيث ان هذه الايديولوجية تشكل قوة تعزلها عن كل تحرك ثوري جذري . وما يزال التطبيق القديم يبين تصور الواقع وتدبيره ، اي بين الدين والسياسة ، قائما وفعالا .

- ٥ -

احدد التخلف بانه نزعة التمحور حول الماضي ، واحدد التقدم ، على العكس ، بانه نزعة التمحور حول المستقبل . انطلاقا من هذا التحديد ارى ان مظاهر التخلف الفكري في المجتمع العربي تتمثل في اربع نزعات سائدة اعرضها تباعا .  
اولا - اللاهوتانية ، واعني بها النزعة التي تقالي في الفصل بين الانسان والله وبين الطبيعة والله ، وتجعل من التصور الديني لله ، الاصل والمحور والغاية . البعد الميتافيزيقي للاهوتانية هو ان الروح هي البداء الذي يؤسس الوجود . فالعالم ثنائية : روح ومادة ، نفس وبدن ، والاولوية للروح ، ولها وحدها الكمال والديمومة . فالانسان موجود اولا في الروح . لا يجيء الى الارض من الارض ، بل يجيء من السماء . فهو ، اصلا ، ليس نموا طبيعيا ، ليس جزءا من الطبيعة . على العكس ، ان وجوده في الطبيعة سقوط . انه امتحان ، ولا بد له ، لكي ينجو ، من ان يتجاوز الطبيعة . فالطبيعة عدوه الاول . على هذا البعد ، قامت المفاهيم وتأسست القيم في المجتمع العربي ، وهي المفاهيم والقيم التي ما تزال سائدة . فمن هذا البعد ينبثق مبدأ النظر والعمل في المجتمع العربي . ويتمثل هذا البعد نظريا ، في اعتبار الوحي المصدر الاول للمعرفة الانسانية ، والمصدر الفيني الكامل النهائي . ويتمثل عمليا في اقامة مجتمع على الارض بمقتضى هذا الوحي الهابط من السماء . فالوحي يهدف الى انقاذ الارض ، اي الى ترويضها لكي تكون على صورة السماء . ومن اجل هذا الترويض ، يجب ان تنتظم الحياة الانسانية في اشكال خاصة تكفل تحقيقه على الوجه الاكمل .

(١) اعتمدنا في استخلاص هذه النقاط على كتاب: احياء علوم الدين ، طبعة دار الشعب ( القاهرة ، دون تاريخ ) : ١ / ١٤٠ ، ١٤٥ - ١٤٦ ، ١٥٢ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٣٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٣٦٨ / ١٥٥ ، ٢٧٩٧ / ٢٨٠٠ ، ٢٨٣٣ = ٢٨٣٤ .

- ١ -

يفترض الكلام على التخلف الفكري في المجتمع الاسلامي العربي تحديدا لمعنى التقدم . ولا يتضح معنى التقدم الا اذا عرفنا تصور الفكر العربي للعلاقة بين الانسان كمنتج او كذات ، والطبيعة كموضوع او ك مجال للانتاج . وهذا ما يعيننا ، بالضرورة الى تحديد معنى العقل من جهة ، والفكر من جهة ثانية كما نشأ وتأسس في التراث الثقافي العربي .

- ٢ -

سأختار الامام ابا حامد الغزالي مصدرا تراثيا نموذجيا لتحديد هذا المعنى . ذلك انه نموذج يمكن وصفه بانه ساد الثقافة العربية ، موضوعيا . اعني انه لم يكن هامشيا ، ولا رفضيا ، ولا تجاوزيا . وانما كان امتدادا وتبلرا لما ترسخ في الحياة والثقافة العربية ، انه ، على الصعيد المبني ، يمثل الاصول ويمثل بالتالي تاصيل الاصول . ثم انه ، على الصعيد التاريخي ، يمثل قوة المؤسسة العربية ، السياسية والثقافية ، التي وقفت في وجه البدعة ، اي في وجه كل التيارات التي كانت تحاول ان تعطي للاسلام وللحياة العربية ابعادا لم تكن موجودة في الاصول . وهو ، لذلك ، الفكر الذي تقبله الثقافة العربية السائدة ، وتعتبره اصلا عظيما من اصولها . واذا كانت لا تجد فيه الشمول الذي تطلبه ، فانها لا تعترض على ما قدمه ، ولا ترى فيه ما يخالف اي اصل من الاصول . وهو ، اخيرا ، نموذج الفكر الذي ما يزال مستمرا فاعلا سائدا في المجتمع العربي .

- ٣ -

نوجز اراء الغزالي في العقل والفكر ، في النقاط التالية :

اولا - العقل محدود ، واستخدامه مشروط بالقرآن والشرع . ونسبته اليهما كنسبة البصر الى نور الشمس . كما ان العين لا ترى الا في الضوء ، فان العقل كذلك لا يرى الا فسي ضوء القرآن والشرع .

ثانيا - الفكر هو استخدام العقل للوصول الى المعرفة .

ثالثا - مجال الفكر او موضوعه اما ان يكون الانسان في علاقته بالخالق ، واما ان يكون الخالق . من الناحية الاولى يبحث الفكر فيما يحبه الله للانسان وفيما يكرهه . ومن الناحية الثانية ، يظل الفكر عاجزا قاصرا . فالانسان العادي يعرف الله اقل مما يعرفه الانسان العالم او الولي . وهذان يعرفان اقل مما يعرف الانبياء ، وهؤلاء يعرفون اقل مما يعرف النبي محمد ، ومعرفة الانبياء جميعا دون معرفة الملائكة المقربين .

رابعا - العلم لذاته محدود ، لانه من صفات الله . لكن علم الانسان يكون مذموما او محمودا : مذموما اذا تناقض مع الشرع ، او اذا لم يكن مفيدا الفائدة التي يقررها الشرع ويدعو لها ، ومحمودا اذا كان شرعيا . لذلك لا يطلب العلم لذاته الا اذا كان علما بالله . وما عداه فيطلب لفائدته فيما لا يتناقض مع الشرع .

خامسا - حتى العلم الذي لا يطلب لذاته والذي لا يتعارض مع الشرع انما هو فرض كفاية ، كالتب والفلاحة والسياسة . اي لا يجوز الاستقصاء فيه من جهة ، ويكفي ، من جهة ثانية ، ان يقوم به واحد لكي يسقط عن الآخرين .

سادسا - العلم اذن ( او الثقافة ، بمصطلحنا الحديث ) هو العلم بالقديم او بما يكون تفسيرا للقديم ، او بما لا يتعارض معه بل يكمله . ويترتب على ذلك امران ، الاول ، رفض كل محدث يتعارض مع القديم ، وان اتفق عليه الجمهور ، والثاني هو ان العلم موجود في الماضي وان اكثر الخلف علما هم الاكثر تشبيها بالسلف . سابعا - الفكر هو الاصل . العلوم والاحوال والاعمال ثمرته . العمل يتبع الحال ، والحال يتبع العلم ، والعلم يتبع الفكر .

من هنا انعكس البعد النبوي للاهوتانية على الحياة الاجتماعية والسياسية ، فتنشأت اللاهوتانية في الامة او الجماعة او الدولة . فليست الامة او الجماعة او الدولة الا اسقاطا لاهوتانيا ، اي ليست الا تجريدا غيبيا . واذا كانت اللاهوتانية شكلا من وجود الانسان في غير ذاته ، فان ارتباط الفرد ، على الصعيد الاجتماعي ، بكيان تجريدي هو ايضا شكل من وجود الانسان في غير ذاته . وان يكون الانسان موجودا في غير ذاته يعني انه موجود في آله ، اي ان ذاته ليست له ، بل لغيره .

والواقع ان التقليد الديني اكد ، تاريخيا ، البنية الاساسية الاولى للمجتمع العربي الجاهلي ، اعني النظام الابوي . الانسان في هذه البنية موجود كميلا لا نوعيا . فحياته مرسومة سلفا : سياسيا وفكريا . عليه ، سلفا ، ان يفعل هذا بامر وان يترك ذلك بنهي . انه يولد بين طرفين : الامر والنهي .

وكل نظام ابوي مثالي ، من جهة ، وقمعي ، من جهة ثانية . مثالي لانه لا يعني بالتجربة الحية ، والتغير التاريخي ، قدر عنايته بالنموذج الاصلي الثابت . وقمعي ، لانه ياطر السلوك والفكر ، بمقتضى هذا التصور المثالي ، ويحول دون اي شكل من اشكال الخروج عليه . فمن يفترق ما شرعه الاسلاف او اسسوه كانه يقتل هؤلاء الاسلاف انفسهم . ومن هنا التمسك بالماضي ، في الحياة العربية . فهو ليس الا مظهرا من مظاهر التمسك بسلطة الاب وشريعته . وهكذا يعيش العربي بين مثاليتين : مثالية البداية : العرب خير امة ، ومثالية النهاية : الجنة التي هي وعد الله . فهو لا يعيش بمنطق الارض والتاريخ ، وانما يعيش بمنطق هذه البداية وتلك النهاية .

يجد النظام الابوي صورته السياسية في العولة . الدولة ورئيسها في المجتمع العربي قوام المجتمع كما ان الله قوام العالم . وليس التشريع الذي تفرزه الدولة الا انعكاسا لارادة السماء . وعلى هذا فان الفكر يجب ان يكون تفسيريا للصلة بين الانسان والسماء ، عبر علاقته بالدولة . يجب ان يكون ، بمعنى اخر ، انعكاسا لهذه العلاقة التسي تخضع فيها الارض للسماء خضوعا مطلقا . ومن هنا ليست الفلسفة ، مثلا ، او الفن اشكالا من الوعي الاجتماعي تنشأ بالتجربة وانما هي اسقاط من اعلى .

وفي هذا المنظور يتحدد التقدم على الارض بمدى تبعيتها للسماء ، وتحدد سعادة الفرد بمدى تبعيته للدولة . ولهذه التبعية قوانين ثلاث : محاكاة الاصل وعدم ابتداء ما يتعارض معه او يشكك فيه ( اي محاكاة الدولة ) ، والثاني تكييف العالم والانسان وفقا لمقتضيات الاصل ( اي لا يراي الا رأي الدولة ) ، والثالث هو نفي الخروج على ما استقر بمقتضى الاصل واعتباره انحرافا او اعوجاجا يجب تقويمه ( اي لا معارضة للدولة ) . وتجد هذه القوانين تجلياتها في مفاهيم : الوحدة والانسجام والتوفيق . وتعني الوحدة نفي التناقض في المجتمع ، ويعني الانسجام نفي الصراع ، ويعني التوفيق نفي الثورة .

ليس التقدم اذن الا شكلا عاليا من المحافظة على الاصل . ذلك انه مهما اتسع العالم وتنوع فان الاصل يظل اكثر اتساعا وتنوعا . التقدم ، بهذا المعنى هبة من فوق ، من السماء ، وليس نتيجة العمل والفكر الانسانيين . فهذان لا قيمة لهما بذاتهما ، وانما تكمن قيمتهما في مدى توكيدهما على الاصل وتعبيرهما عنه وتكيفهما معه .

هكذا يعيش الفرد العربي غريبا عن ذاته ، بنديا . فهو ، من البدن ، موجود : دينيا ، في السماء ، ودينويا في الامة - الدولة . وفي هذا ما يقدم عنصرا اساسيا لتفسير الظاهرة السائدة اليوم في المجتمع العربي : من جهة ، بنية قمعية يسوغها النظام القائم باللاهوتانية واسقاطها الاجتماعي . ومن جهة ثانية ، رفضية ترمز الى ان العربي لا يشعر انه موجود في ذاته الا لحظة يتحرر من اللاهوتانية ومن تشيئها الاجتماعي - السياسي . بل لعنا نجد في ذلك اساسا لتفسير سيادة مستويين من الثقافة في المجتمع العربي : ثقافة تمجيد النظام الراهن الموروث ، وثقافة التناسل والاكل .

والعربي في الحالتين محصور في المستوى الالي - الحيواني للحياة الانسانية ولا يقدر ان يمارس جوهره الانساني : حرية الابداع ، سواء في الفن او الفلسفة ، او الدين او العمل .

ثانيا - الماضية ، واعني بها نزعة التعلق بالمعلوم ورفض المجهول بل الخوف منه وفي هذا ما يفسر ايمان العربي بان الانسان لا يقدر ان يتكيف الا مع الاشياء والافكار التي يستطيع خياله ان يجاريها ويقبل بها ، اما تلك التي يعجز عن تفسيرها ، فانه يرفضها ولا يواجهها . هكذا حين كان العربي يواجه شيئا من خارج تراثه ، يحاول اولاً ، ان يفهمه بالمقارنة معه ، اي مع ما يفهمه . وحين لا يكون ثمة مجال للمقارنة ، فقد كان هذا الشيء يبدو له مشوشا ومخيفا وخطرا . المهم ، بالنسبة اليه ، هو الواضح ، هو ما يفهمه ويسمح له بالتوجه في الطبيعة والثقافة ، في الحياة والمجتمع . ومن هنا اخذ العربي ينطلق ، بنديا ، في سلوكه وتفكيره ، من اليقين بانسه ناقص ، وظفيا ، اذا لم تكن له نماذج ثقافية - اي انه يفقد حس التوجه والحركة ويقف السيطرة على ذاته ويتحول الى سديم . بل يشعر ان وجوده يتوقف على استمرار الرموز الماضية ومنظوماتها . وهو يسلك ازاء من يهددها ، شكاً او رفضا ، مسلكا عنيفا . وفي تاريخ الفكر العربي ما يكشف عن هذا المسلك مما يعرفه الجميع .

هكذا يستخدم العربي موروثه لكي يعرف كل شيء ، وما لا يفهمه هذا الموروث لا يكون جديرا بان يعطى اية قيمة . كانه يشعر ان المجهول يهدد طاقته على الفهم ، ويهدد موروثه الذي يرى فيه الكمال والعصمة . فما يتجاوز حدود معرفته المكتسبة ، وبخاصة ، الدينية يجعله في قلق وحيرة ، ويؤدي ، كما يعتقد ، الى ضلاله . وبهذا المعنى نفهم دلالة الموقف من البدعة ، في الماضي ، وندرك في المرحلة الحاضرة الدلالة في صراع الافكار داخل المجتمع العربي بدءا مما سمي بعصر النهضة حتى اليوم . فهو يكاد ان يكون استعدادا للصراع الماضي بين قيم الثبات الماضية ، وقيم التحول المستقبلية ، حتى يبدو غالبا انه يجري بالكيفية الماضية ذاتها ، تقريبا ، وبالوسائل القمعية والانضائية ذاتها تقريبا .

ثالثا - نزعة الفصل بين المعنى والكلام واعتبار المعنى سابقا ، وليس الكلام الا صورة له او رسما تزيينا . وهذا ما تضيئه التجربة التاريخية ذاتها . فالعربي يفضل الخطابة على الكتابة ، ذلك ان الخطابة اقرب الى محاكاة النطق الالهي او الوحي ، اي المعنى ، من الكتابة . الكتابة ليست الا النطق وقد سقط في الزمان . انها اصل شاحب للنطق ، وهي لا تمثل من الوجود الا ظله . انها ، بتعبير اخر ، قناع النطق ، اي انها لا تمثل ، لعظمة حضورها الكامل ، الا الغياب الكامل .

وفي كل تطور حضاري يتطابق الشكل والوظيفة بحيث ان تفسير الوظيفة يستتبع تغير الشكل . لكن مع ان وظيفة الشعر في المجتمع العربي تغيرت في الاسلام عما كانت عليه في الجاهلية ، فان شكله لم يتغير . وهذا مما اكد الانفصال بين الكلام والمعنى ، او الشكل والمحتوى ، وادى الى ان يصبح التعبير الشعري نوعا من المطابقة بين الكلام والمعنى القديم ، اي الوجود قريبا . هذا المعنى هو الحق اي هو الاسلام وقيمه . وفي هذا ما يكشف من جهة ، عن الاسباب التي جعلت العربي ينظر الى جاهلية اللغة والشعر ، من منظور ديني ، ذلك ان اعجاز القرآن يقوم في بعض جوانبه الاولى على الاعجاز الجاهلي . وحين تحدى القرآن الشعر الجاهلي تحدها من حيث انه المثال الكامل للبيان والوضاحة ، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية الجاهلية والشعر الجاهلي بعدا دينيا ، واصبح العربي يصدر في نظره الى ماضيه الثقافي الجاهلي عن شعور ديني . وفي هذا ما يكشف من جهة ثانية ، عن معنى المطابقة مع القديم . فالقديم اصل كامل وعلى ما يجبره بعده ، ان يتكيف معه ويصدر عنه والمطابقة اخلاقية ولغوية : الاخلاقية هي ان نطاق سلوك الخلف مع النموذج الاصلي السلفي للسلوك . واللغوية هي ان يتطابق تعبير الفرد مع النموذج البياني الاصلي للتعبير . وتنطلق المطابقة مع القديم من الايمان بان

القديم هو وحده الحق ، وبان الحق ثابت لا يتغير وان على الانسان ان يتكيف معه ، وبان الحق واضح ، لذلك يجب ان يكون التعبير عنه واضحا ، وان الحق عقلي منطقي ، لا عاطفي انفعالي ولذلك يجب استبعاد التخيل ، فالتخيل درجة متوسطة بين الحس والعقل ، لا يوصل الى معرفة يقينية ، بل على العكس يوهم ويضل ، وبان المجاز اخيرا يجب ان يستبعد ، فالكلمات هي لما وضعت له اصلا ، ولا يجوز ان يعيد بها التعبير عن معناها الاصلي . واستبعاد المجاز هو المقابل للفوي - البياني لاستبعاد التاويل ، على الصعيد الفلسفي - الديني .

هكذا يكون الشعر ( والثقافة ، بعامة ) العربي القديم مثلا ، بالنسبة الى الحديث ، في مقام الاجمال ، كما ان القرآن مثلا ، بالنسبة الى الفكر الديني ، في مقام الاجمال ، وما ياتي بعده في مقام التفصيل . فالتفصيل هو لسان الاجمال وترجماته وشرحه ومرآته . والمفصل اذن ليس ابتكارا وانما هو شرح للمجمل ومظهر له . وهذا يعني ان الاقدم هو ، بالضرورة ، الافضل ، وان الاسبق هو ، بالضرورة ، الاعلم من كل لاحق . فالنور العربي واحد : اوله ، الوحي ، دينيا ، والشعر الجاهلي اوله ، شعريا . والافضل تدرج تبعا لتدرج القرب من الاول . وليست الحياة اليومية الا تمرسا بمحاكاة الاول . وهذا يعني ان الشعر ، شأن الدين ، يحدد بنشأته الاصلية الكاملة . فكما ان الدين تدين اي تكرار طقسي ، فان الشعر كذلك هو نوع من التمرس بفهم الماضي واستعادته في تكرار طقسي .

رابعا - نزعة التناقض مع الحداثة : ففي القديم ، بالنسبة الى العربي ، طاقة لكي يكون مصدرا لمفاهيمه ، الخاصة والعامة ، لا فيما يتصل بشخصه وحده ، بل فيما يتصل ايضا بالعالم وعلاقته مع العالم . القديم ، بتعبير اخر ، طاقة تبعث منها وظائف ثقافية ، ومن هذه الوظائف تولد وظائف اخرى اجتماعية ونفسية . وهذا يعني ان شخصية العربي ، شأن ثقافته ، تتمحور حول الماضي - القديم . وفي هذا ما يكشف عن التناقض في موقفه من الحداثة الغربية - فهو يأخذ منجزاتها ، لكنه يرفض البدا العقلي الذي ابداعها . والحداثة الحقيقية هي في الابداع لا في المنجزات بذاتها . فهو اذن يرفض الحداثة الحقيقية : المفامرة في اكتشاف المجهول وقبوله ، من اجل مزيد من السيطرة على الطبيعة وتغيير العالم .

- ٦ -

نشأ الاسلام في عالم كان الله فيه الغيب والواقع معا ، الروح والجسد معا . كان نعمة وحدة بين الالهي والانساني . الانسان صورة الله ، والله ، تجسد وصار انسانا . وكانت هذه الوحدة مبدا العالم ومحوره : بهما يبدأ التاريخ واليهما ينتهي . ومن هنا كانت الحرية مطلقة ولا نهائية . ففيها يتوحد الانسان بالله ، اي بالقدرة غير المحدودة التي ينتمي اليها .

اما الاسلام فقد فصل بين الله والانسان ، والفي مبدا الوحدة بينهما . وجعل امر الدنيا وتبديرها يتمان بمقتضى الدين . وقد طبق المسلمون الاول هذا النظر بحيث اصبحت ممارسة السلطة اللنيوية ، اي السياسة ، هي النواة التي تكون حولها التاريخ : الدين هو المطلق الذي يوجه العالم النسبي ويسيطر عليه ، والتاريخ بناءا للدين بروح الدين .

ومن هنا اصبحت السلطة على الصعيد العملي ، او من يكون في موقعها ، هو الشخص الوحيد الحر . ومثل هذه الحرية تفترض حتما للحرية عند جميع الاشخاص الذين لا يكونون في موقع السلطة ، اي انها تفترض عبودية الاخر . فالآخرون في البنية الاجتماعية الاسلامية ، اي في الممارسة كما تكشف عنها وقائع التاريخ ، غير احرار الا بقدر ما يرون حريتهم في حرية السلطة ، اي بقدر ما يفوضون الامر لصاحب السلطة .

وهكذا كانت الحرية في الاسلام تقابلها العبودية على غرار ما كانت الحال في المجتمعات قبل المسيحية ، وفي اليونان بخاصة . وفي هذا كانت الحياة الاسلامية عودة الى ما قبل المسيحية . وتعني

هذه العودة ان الوحي هو رسالة الله الى الانسان ، وانه المبدا الذي ينظم العالم وحياة الانسان ، الصلة بين الانسان والله . فالوحي هو الذي يوجه الفعالية الانسانية ، في شتى اشكالها .

صار الدين دين النظام ، وتوحد بالواقع السياسي لهذا النظام . صار النظام ينظر الى الواقع من حيث انه واجب الانسجام مع دينه وسياسته في آن . كان النظام تجسيدا لخضوع العالم لله ، والواقع للغييب . وصار الفكر انطلاقا من ذلك لا يتعارض مع الواقع ، بل صار واحدا ، اي صار الفكر والدولة شيئا واحدا . وفي الدولة تجسد دور الدين : كمعرفة الهية ، وكتدبير او علم دينوي .

ويتجلى الصراع بين الفرد والجماعة ( الدولة ) في مجال اللغة اولا . فاللغة تمثل المستوى الاول للانسجام بين الذات والموضوع ( الفرد والجماعة ) . وهي تمثل كذلك المستوى الاول لانفصال الذات ، اي لتفرد الفرد وتميزه . اللغة ، بتعبير اخر ، قوة اتصال وانفصال في آن : قوة اتصال من حيث ان الفرد يولد وينمو ويفكر ضمن لغة موجودة قبله . وقوة انفصال من حيث ان الفرد يعرف الاشياء ويسمياها ، ويميز نفسه عنها ، ويمي وضعه وما يريد . فكما ان اللغة توحد الفرد مع الجماعة ، فانها تتيح له ان ينفصل عنها ، بان يؤكد تباينه ، وتأخذ اللغة هذا الدور الحاسم ، اتصالا او انفصالا ، في المجتمع العربي ، لان العربي لا يعمل او يملك بقدر ما يلفو . فاللغة ، في المجتمع العربي ، كلام ملك وعمل في آن . وبما ان الدين ، ارتبط بالدولة ، في المجتمع العربي ، ارتباط وحدة تامة ، فقد اتخذت وحدة الفرد مع الجماعة شكلا سياسيا وحقوقيا ، واخذت تخضع للالتزامات السياسية والحقوقية . فالخروج على الجماعة ، فكريا ، هو في الوقت نفسه ، خروج سياسي وقانوني . وهكذا حيل بين الانسان وفدته الوحيدة : اللغة ، وصار الفرد لا يملك ولا يعمل ولا يتكلم : صار مستلبا على جميع المستويات . وبهذا المعنى يمكن القول ان الانسان العربي لم يولد بعد ، من حيث هو فرد متميز حر ، وليست الجماعة ، هي ايضا ، الا تجريدا . فكان المجتمع العربي لفظ لا غير .

وفي التجربة التاريخية اخذ العربي يتجه لممارسة ما لا يخضع للالتزام الديني ، او السياسي . اخذ يتخلى عن اللغة ، كابداع - ويتمسك بالشيء كمادة للحياة اليومية . وكان تمسكه بالشيء يزداد تبعا لازدياد شعوره بان الدين او الوحي يحاصره . وهكذا اصبح العربي تستعبده الفكرة ممثلة في الدين ، ويستعبده الواقع مثلا في اشياء الحياة . باستعباد الشيء له ، يشعر انه حاضر . ان هذا الحضور هو البديل الذي يقدمه له الشيء عن غيابه في استبعاد الفكرة له . فالعربي موجود معدوم بين طرفين : الوحي والشيء ، وهو في الحالين غير موجود في ذاته . انه ، في الحالين ، مستعبد ، مستلب .

- ٧ -

اخلص ، في ضوء ما تقدم ، الى القول ان الفكر العربي السائد فكر اتباعي ، لا يؤكد الاتباع وحسب ، وانما يرفض الابداع ويدينه . ولهذا يحول دون اي تقدم حقيقي ، لا يمكن بتعبير اخر ، ان تنهض الحياة العربية اذا لم تنهدم البنية التقليدية الفكرية السائدة . هكذا يتوجب على العربي ان يتحرر من كل سلفية ، وان يزيل القنسية عن الماضي ، ويعتبره جزءا من تجربة او معرفة غير ملزمة اطلاقا ، وان يؤمن ، تبعا لذلك ، ان جوهر الانسان ليس في كونه وارثا متابعا ، وانما في كونه خلاقا مغيرا (١) .

(١) واضح ان هذه الكلمة تحاول ان تصف الفكر الموروث السائد وتخليته . وهذا لا يعني ، بالطبع ، ان المجتمع العربي خلا او يخلو من الفكر الخلاق الذي يرفض ويتجاوز ويستشرف . فمدار هذه الكلمة هو التخلف الفكري وابعاده ، ولذلك لم تعرض للفكر الخلاق وابعاده ، وهو ما ادرسه في كتاب « الثابت والمتحول : بحث في الاتباع والابداع عند العرب » ، الذي يصدر هذا الشهر .